الحضارات المصرية القديمة

أصيلة أم وافدة؟

د. محمد عبد الغنى سعودى (*)

تتكاثر النظريات المتعارضة عن أصل الحضارة المصرية القديمة (ونعنى حضارات ما قبل الأسرات والحضارات الفرعونية) متسائلة عما إذا كانت من صنع المصريين أم من صنع الآخرين. والآخرون -فى هذا السياق - هم من يصر بعض الباحثين على أنهم أفارقة من الأصول الزنجية على وجه التحديد، فى حين ينسبهم غيرهم إلى أصول آسيوية؛ ذلك لأن الفن المعمارى المصرى القديم والزخرفة وما إليها شد الانتباه وأخذ بالألباب، بحيث استكثروا على المصريين أن يكونوا صانعيها وأربابها، فكأن هؤلاء وأولئك من الأجانب هم أصحاب الفضل، فى حين اقتصر دور المصريين على التنفيذ.

وفى هذا المجال لابد من أن نبدأ بحقائق أساسية لعلها تفيدنا فى الوصول إلى رأى، وهذه الحقائق هى:

- أن موقع مصر الجغرافى، عند ملتقى القارات الثلاث، لا يسمح لها بأن تعيش فى عزلة؛ أى منطوية ومنقوقعة على نفسها، لا يدخل إليها ولا يخرج منها أحد، وشواهد التاريخ: قديمه ووسيطه وحديثه، خير برهان.

- لا يشترط لانتقال الحضارة المادية أو الثقافة غير المادية بوجه عام، من مكان إلى آخر، انتقال الجماعات أو السلالات؛ فعلاقات الجوار والتجارة والإعلام الآن كافية لانتقال مظاهر حضارة ما من مكان إلى آخر (ثقافة البيتزا والهمبورجر خير مثال).

(*) أستاذ الجغرافيا بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية - وعميد المعهد السابق.

- أن مظاهر الحضارة التى نراها لا تنشأ فجأة أو من فراغ، ،بل لابد من أن تسبقها أدوار متعددة تتدرج فيها، حتى تبرز فى النهاية بأهراماتها الضخمة، ومعابدها الخلابة، ونقوشاتها الزاهية، وتماثيلها الناطقة التى استمرت آلاف السنين شاهدة على العصر.

- أن الحضارات الحية تأخذ وتعطى، والحضارة المصرية إذا أخذت وأعطت فهى ليست بدعة فى هذا المجال، أما التى لا تأخذ ولا تعطى، فهى حضارة جامدة، لا تلبث أن تندثر، والحضارة المصرية لم تندثر على الرغم من مرور أكثر من ستة آلاف عام، ومن ثم كانت آخذة معطاءة فى الوقت نفسه.

- أن الحضارة (أو الثقافة culture) أسلوب حياة لها جوانبها المادية الملموسة؛ كالملبس والمأكل والمسكن والمعبد والمقبرة والآلات. . .إلخ، وجوانبها المعنوية ممثلة فى الدين واللغة والسلوك والعادات والتقاليد. . . إلخ.

هل الحضارة المصرية زنجية ؟

زنجية الحضارة المصرية هى نظرية الباحث والأديب السنغالى الشيخ «أنتا ديوب». وتقول نظريته إن المصريين الأوائل فى عهد ما قبل الأسرات وعهد الأسرات؛ أى ما قبل التاريخ ومصر الفرعونية كانوا أفارقة؛ يقصد زنوجاً، أقاموا الحضارة المصرية القديمة ثم رحلوا، أمام غزو الآسيويين والأوربيين إلى أفريقيا فى جنوب الصحراء، وحاول «أنتا ديوب» دعم نظريته بأدلة تتعلق باللون، وتغير المناخ، وبعض المظاهر الحضارية المشتركة بين الحضارة المصرية القديمة، وحضارات أفريقية فى جنوب الصحراء (ديوب ١٩٩٥م)، ومع احترامنا للشيخ الجليل وتقديرنا لعلمه فى حياته وبعد مماته، فإن اعتراضنا على هذه النظرية ليس تبرؤا من الحضارات السوداء، كما قد يقولون، فكل حضارة أسهمت فى تطور البشرية بقدر، ولكن تظل كلمة العلم فى النهاية هى العليا.

يستهل الشيخ أنتا ديوب نظريته بالقول إن القاسم المشترك فى أطروحات علماء المصريات (لاحظ أنهم مصريون وأجانب) يتلخص فى محاولة يائسة لإنكار أطروحة مصر الزنجية، ويُجمع علماء الآثار المصرية تقريباً على رفض هذه القضية (ديوب ١٩٩٥م : ٣٩).

• مضمون الفرضية:

مضمون تلك الفرضية أن السلالة الزنجية كانت تشغل الوادى والدلتا حتى نهاية الدولة الحديثة أو بعدها بقليل، حتى أتت هجرات الغزاة من الأوربيين والآسيويين. وقد حدث هذا الانتشار الزنجى فى الفترة ما بين العصر الحجرى القديم وعصر ما قبل الأسرات (ديوب ١٩٩٥م : ٣٩)، فأزاحوا السكان الأصليين (الزنوج) نحو الجنوب. ومعنى هذا أن بناة الأهرام وأبى الهول وغيرها (الدولة القديمة) كانوا زنوجاً. ولكن الثابت ثبوت اليقين، من دراسة حفائر العصر الحجرى الحديث، التى ترجع إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أن السكان لم يكونوا زنوجاً، وكذلك الأمر فى عصر ما قبل الأسرات.

• الأحوال المناخية فى فجر الحضارات المصرية القديمة:

ويهمنا فى هذا المقام أن نشير إلى أن الأحوال المناخية عند بداية ظهور الإنسان لم تكن كما هى الآن، فقد مر على العالم فى عصر البليستوسين (الذى انتهى منذ ٥٠ ألف عام) عصر جليدى، غطى فيه الجليد معظم أوربا وآسيا، وتوزع الجليد على أربعة أدوار (جنز - مندل - ريس - فورم)، وبين كل دور والآخر كان يسود الدفء، ويقابل هذا الجليد أمطار غزيرة على الصحراء الكبرى الأفريقية، فى حين سادها الجفاف فى فترات الدفء، وهكذا مرت على الصحراء الأفريقية فى أثناء العصر الحجرى القديم فترة تميزت بوفرة فى المطر، وغنى فى الحشائش، واستوطنتها حيوانات لا تقربها الآن، وهى حيوانات إقليم السفانا؛ كالزراف، والحمار الوحشى، والغزلان، والضباع،

والأسود. وقد وُجدت هذه الأشكال منقوشة على صخور الصحراء، ومن ثم كانت الصحراء الحالية موطناً للإنسان الذى يعيش على الجمع والصيد، فى حين أن وادى النيل كان أشبه بمستنقع كبير، تمرح فيه التماسيح وأفراس النهر وغيرها مما لا يشجع على الإقامة فيه، غير أن ظروف الدفء فى أوربا والجفاف فى الصحراء، وقلة النبات وهجرة الحيوان إلى الجنوب، بدأت منذ العصر الحجرى الحديث، منذ ٨٠٠٠ سنة تقريباً؛ وهذا مما اضطر معه إنسان الهضاب القريبة من النيل إلى ترك الصحراء والنزول إلى الوادى حيث يتوافر الماء (رزقانة، ١٩٤٨م : ١٤-٦٦).

• التدرج من الرطوبة إلى الجفاف:

على أن الانتقال من المناخ الرطب إلى المناخ الصحراوى لم يكن فجائيا، بل كان تدريجيا، بحيث لم يعتمد الإنسان فى عهد الأسرات الأولى على الزراعة القائمة على الرى النيلى وحدها، بل كانت الأعشاب والحشائش لا تزال تظهر فى شرق الوادى وغربه، وهذه توفر أرضاً للصيد، وتساعد على تربية الماشية، وإن كان هذا بصورة أقل، ومن ثم لم تكن الزراعة سوى نشاط واحد من الأنشطة، وإن كانت أحد العناصر الأساسية للحياة اليومية، ويستدل على هذا من أن الضريبة التى كان على الأعيان أن يدفعوها للسلطة المركزية اقتصرت على دخلهم من الأراضى وعدد رءوس الماشية (ديوب ١٩٨٥م : ٢١).

أولاً : على العموم بدأ الاعتماد على الزراعة بصورة أكبر واختفى الصيد والجمع منذ نهاية العصر الحجرى القديم (الحجرى القديم الأعلى)، أى قبيل العصر الحجرى الحديث، وإن كانت حفريات هذه الفترة قليلة، فإن ما وجد من عظام فى كوم أمبو يشبه «إلى حد كبير» عظام سكان عصر ما قبل الأسرات أو عصر بداية المعادن (حزين ١٩٩١م : ٢٤٨). وقد وجدت فى العصر الحجرى الحديث - وهو أول عصر استقر فيه الإنسان فى الوادى، وانتقل فيه المصريون من البداوة إلى الاستقرار- وجدت بقايا الإنسان العظمية فى مقابر فى مصر السفلى ومصر العليا، يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠٠٠ ق. م؛ أى إلى سبعة آلاف عام من وقتنا الراهن، فى مرمدة بنى سلامة (قرب الخطاطبة). وتدل هذه البقايا على أناس طوال الرءوس، وليس بهم أى أثر أفريقى أو زنجى، وإن كان حجم الجمجمة أكبر من الجمجمة لدى العناصر التى جاءت بعدهم؛ أى عصر ما قبل الأسرات. ويقابل أهل مرمدة بنى سلامة سكان «دير تاسا» (شرق النيل فى أسيوط)، ويتبين من عظامهم أن أغلبهم من ذوى الرءوس الطويلة، وإن ظهرت الرءوس العريضة أحياناً. ثم كانت حضارة «البدارى» (فى أسيوط)، حيث كانت العظام أصغر والهياكل أرق والرءوس طويلة أو متوسطة، والأنف شبه أفطس، وكان الشعر مموجاً، ولكنه ليس مفلفلاً، ولون الجلد قمحيا. ويُرجع بعض الباحثين ذلك إلى أنهم تأثروا بدم زنجى، وإن لم يكونوا زنوجاً.

نخرج من هذا بأن إنسان العصر الحجرى الحديث لم يكن زنجياً، وإن شابته دماء زنجية فى الجنوب (البدارى).

وإذا أردنا أن نتعرف المصريين القدماء فى عصر ما قبل الأسرات؛ أى منذ عام ٤٥٠٠ق.م، (وهم الذين يمثلون جذور عصر الأسرات) من بين الأحياء الحاليين، لوجدناهم فى قبائل البجا فى شرقى السودان وجنوبى شرق مصر، ومنهم بشاريو حلايب رعاة الإبل الذين تصادفهم فى دراو بأسوان يبيعون إبلهم، ويشبهون أيضاً قبائل العبابدة فى جنوبى الصحراء الشرقية، ومن ثم فهم ينتمون إلى ما يعرف بالحاميين الشرقيين؛ شأنهم فى ذلك شأن الصوماليين والإثيوبيين، وقد تجد فى بعض هؤلاء من هو أشد سوادا من الزنجى الصريح؛ فهل نعدهم زنوجاً؟

إن قامتهم متوسطة (٥أقدام+٥بوصات)، وشعرهم مستقيم أو به جعدة بسيطة، واللون أسمر، والرأس مستطيل، والأنف أقل عرضاً من أنف الزنجى، وعظام الحاجبين ليست بارزة. وقد يختلف أهل شمال الوادى قليلاً عن أهل الجنوب برأس أكثر عرضاً وأنف أكثر اعتدالا. وعلى العموم فإن هؤلاء هم الذين أطلق عليهم إليوت سميث السلالة السمراء Brown Race، ويعدون من سلالة البحر المتوسط (رزقانة ١٩٤٨م : ٢٤٧). ومن الطريف أن هذا الاختلاف القليل بين سكان شمال الوادى وجنوبه سرعان ما اختفى فى العصر الفرعونى، بسبب طغيان أهل الشمال، لكثرة عددهم وقدرتهم على الاستيعاب. ومن الطريف أنه استَدِل على جماجم عريضة الرأس والوجه فى المقابر الملكية فى عصر بناة الأهرام، وهى تدل على تأثيرات شامية (حزين ١٩٩١م : ٢٥٣).

نخرج من هذا بأن إنسان عصر ما قبل الأسرات أيضاً فى مصر لم يكن زنجيا تماماً كما رأى الشيخ أنتا ديوب.

ثانياً: خلط الألوان

اختار أنتا ديوب لون البشرة للتمييز بين السلالات البشرية، وهو اختيار فى غير محله من الناحية العلمية، إذا اقتصرنا عليه وحده؛ فعلى الرغم من أن

اللون هو أكثر عناصر التمييز وضوحاً واسترعاء للنظر، فإنه ليس بأفضل العناصر؛ ذلك لأن أفضلها هو ما لا يتأثر بالبيئة بسهولة، كشكل الرأس وطول القامة، وملامح الوجه؛ كشكل الأنف والشفتين مما سنعرض له. كما أن هناك درجات فى اللون الواحد، ولون السلالات الزنجية أقرب إلى البنى (الغامق)، حتى لنجد السيدات فى اختيارهن الأقمشة يميزن بين درجات البنى (كاكاو- كاكاو باللبن) والأسود (الفحمى)، بل إن هناك عشر درجات فى اللون الأسود.

وكثيراً ما يردد الشيخ أنتا ديوب الإشارة إلى الجنس الأبيض ليعنى بذلك الأوربيين، علماً بأنه يقصد به فى السلالات السلالة القوقازية. والسلالة القوقازية تضم ثلاث فئات: قوقازية الشمال الأوربى (النورد)، قوقازية الوسط الأوربى (الألبى) وقوقازية الجنوب الأوربى، وقوقازية الشمال والشرق الأفريقى (البحر المتوسط)، وهؤلاء هم السمر، وليسوا من السود حتى إذا استخدمنا الألوان. ويقول إن إليوت سميث يصف المصريين الأصليين بأنهم فرع مما يطلق عليه الجنس الأسمر Brown ،وهو نفسه جنس البحر المتوسط. واصطلاح «أسمر» هذا يشير إلى لون الجلد. ويتبرع أنتا ديوب ويفتى بقوله إنه لا يدرى لماذا يجامل إليوت سميث المصريين.

ولو أراد إليوت سميث أن يقول إنهم سود البشرة لكان فى إمكانه أن يقول Black، ومن ثم فما يستشهد به أنتا ديوب هو استشهاد ضده، لا له؛ لأنه خلط بين الألوان، وفى رأيه أن الأبيض هو الأوربى فحسب.

ثم يعرض أنتا ديوب لخطاب صادر من شامبليون إلى أخيه فيجاك (ديوب ١٩٩٥م : ٣٩)، وهو يتعلق بنقوش مقبرة أوسرع الأول، التى ترجع إلى القرن السادس عشر ق. م (الأسرة ١٨). وهى تصور الأجناس البشرية التى عرفها المصريون. ويعد هذا الأثر أقدم وثيقة كاملة وصلت إلينا بخصوص علم الأجناس البشرية، فيقول ما ملخصه: فى وادى الملوك أعجبنا بنضارة القصور

العجيبة ودقة النحت فى عدد كبير من المقابر، وكلفت بعضاً برسم سلسلة الشعوب المنقوشة، فهناك لوحة منقوش عليها الشعوب المختلفة الأجناس التى يقودها الإله حورس وهو ممسك بعصاه الرعوية، ومن دراسة النصوص عرفت أنها تصور أهالى مصر وسكان البلاد الأجنبية؛ فالرجال الذين يقودهم حورس ينتمون إلى أربع عائلات تتميز الواحدة منها تماماً عن الأخرى؛ فالرجل الأول أقربهم إلى اللون الأحمر الداكن؛ قوامه متناسق تماماً، ووجه رقيق، وأنفه معقوف بدرجة قليلة، وشعره مضفر، ويرتدى إزارا أبيض. ويشير النص إلى هذا الجنس باسم روت - إن - نى - روم؛ أى أحسن الأجناس؛ أى المصريين، والرجل الثانى من جنس الزنوج، أما الثالث فيشير إلى رجل بشرته بلون اللحم ويميل إلى الصفرة أو اللون الأسمر، والأنف معقوف للغاية، واللحية سوداء وغزيرة، مدببة فى نهايتها، والرداء قصير متنوع الألوان، ويسمى هؤلاء نامو، أما الأخير فلون بشرته أبيض فى تدرجاته، والأنف مستقيم، والعيان زرقاوان، واللحية شقراء، والقامة طويلة، وهو يتدثر بجلد بقرة، ويبدو متوحشاً حقيقيا، وهؤلاء يسمون تامهو. ويقول شامبليون: «وقد وجدت نظيراً لهذه اللوحة فى عدد من المقابر الملكية الأخرى، واقتنعت بأن الهدف وهو تصوير سكان نواحى المعمورة الأربع؛ فالأول يمثل أهالى مصر، والثانى يمثل سكان إفريقية (الزنوج)؛ والثالث يمثل الآسيويين، والرابع يمثل الأوربيين، وكانوا فى تلك الفترة لا يقدمون صورة طيبة للعالم». (ديوب ١٩٩٥م : ٤٠).

ثم يقول إن القبائل الأولى التى استقرت فى مصر؛ أى فى وادى النيل ما بين شلال أسوان والبحر، جاءت من الحبشة أو سنار. وتنتمى إلى جنس يشبه البرابرة الذين يعيشون الآن فى النوبة.

ويختلط الأمر على الشيخ أنتا ديوب، فيقول إن السمات الزنجية للجنس

الإثيوبى (أى الأحباش) واضحة، وإن النوبيين هم أسلاف أغلب زنوج إفريقية، وإن الإثيوبيين وأقباط كل منهما من أصل زنجى اختلط فيما بعد بعناصر بيضاء.

هكذا نجد أن رأى شامبليون يتفق، إلى حد كبير، مع الحقائق العلمية التى تشير إلى أن النوبيين فى مصر والسودان، والإثيوبيين كذلك، لا ينتمون إلى السلالة الزنجية، فى حين أن الرؤية أمام الشيخ أنتا ديوب لم تكن واضحة، حيث رأى أنهم زنوج أو من أصل زنجى بسبب لون بشرتهم، كما خلط بين السلالة والدين؛ فالأقباط ليسوا جنساً !!.

ثالثاً: خرافة النزوح الكبير

ومما يقوض النظرية أيضاً أن الجنس الزنجى المزعوم ظل يشغل الوادى والدلتا حتى نهاية الدولة الحديثة وما بعدها، ثم نزح إلى جنوب الصحراء نتيجة ازدحام وادى النيل بالعناصر الأوربية والآسيوية. وهو فرض غير معقول؛ لأنه لم يحدث فى مصر أن الشعب كله نزح أمام غزو أجنبى، على مدى العصور التاريخية من الهكسوس إلى الإنجليز؛ إذ الغزو قوامه الجيش، وكل ما فى الأمر أنه قد تهرب الأسرة الحاكمة لا القاعدة العريضة التى تظل مستقرة كما هى، وتواجه الغازى وتتعامل مع الظروف الجديدة. ومنذ الماضى البعيد كانت هناك ظاهرة فريدة تتعلق بالشعب المصرى، على مدى عصور التاريخ: قديمه، ووسيطه، وحديثه؛ ألا وهى قدرته على امتصاص الجديد الدخيل، لا إخلاء الأرض له، فكانت تمصره بهضمه، وتفرزه كائناً مصريا صميما؛ فقد امتصت الرعاة فى واديها الفيضى، فصاروا زراعاً مستقرين، بل إنه حتى فى تاريخنا الحديث تمصر الأتراك والشراكسة الذين ظلوا فى مصر منذ العهدين المملوكى والعثمانى، ولا يمكن تمييزهم إلا من خلال الأسماء كالأبازة (أباظة) والأزميرى، والمردنلى، والمنستيرلى، وغيرهم (حمدان ١٩٩١م : ٥٥).

والواقع أن الأمر اختلط على شيخنا أنتا ديوب، فلم ينزح المصريون القدماء نتيجة الغزوات الأوربية والآسيوية حاملين معهم عاداتهم ولغاتهم، تاركين مصر للعنصر الأجنبى؛ فالذين هاجروا حقا إلى جنوب الصحراء هم سكان الصحراء الكبرى؛ ذلك لأنها قبل العصر الحجرى الحديث لم تكن صحراء، بل كانت وفيرة المياه زاخرة بالنبات، عامرة بالحيوان؛ يدل على ذلك تلك النقوش والرسوم المنقوشة على صخورها التى تمثل أناسا يعيشون على الجمع وصيد حيوانات ضخمة لا تعرفها الصحراء الآن، كما سبق أن ذكرنا. وكان هذا فى الفترة بين عامى ٥٠٠٠ و٣٠٠٠ ق. م، فلما حل الجفاف (بداية الجفاف الحالى)، ويبس الأخضر، وتحرك الحيوان نحو الجنوب؛ تبعه الإنسان.

وبطبيعة الحال انطبقت هذه الظروف المناخية على القسم الشرقى من الصحراء حيث مصر، ولكن كان هناك فرق يتمثل فى أن النيل ينساب فى واديه، حيث تنمو النباتات فى حرية، ويجد الحيوان غذاءه، لذا وجدنا الرسوم تُظهر أفراس النهر والتماسيح والأسود والغزلان، ومن ثم فإنه حين جفت صحارى مصر اتجه المصرى إلى وادى النيل؛ أى أنها هجرة شرقية وغربية نحو الوادى، لا نحو الجنوب.

الفرق إذن هو النيل! فمن الأطلنطى إلى البحر الأحمر لا يوجد إلا نيل واحد، وكان هذا أول سبب لاستقرار المصرى القديم، والتحول إلى الزراعة وتربية الحيوان بدلاً من الصيد والجمع والالتقاط. تدل على هذا حفائر نقادة، والبدارى، ودير تاسا، وأبيدوس، والمعادى، وحلوان، ومرمدة بنى سلامة، وهى تمثل حضارات مصر فى فجر التاريخ وصبحه. وبعد ذلك بدأ عصر الأسرات منذ عام ٣٢٠٠ ق. م تقريباً، ولم يذكر لنا التاريخ القديم أو الحديث - منذ ذلك الحين حتى وقتنا الحاضر - أى نزوح جماعى من مصر نتيجة (هولوكست) قام به أجانب وافدون.

رابعاً : التخريج اللغوى

حاول الشيخ أنتا ديوب أن يوجد صلة بين اللغة المصرية القديمة ولغة الولوف Wolof (سكان السنغال)، ليستدل على الجذور التاريخية للمصريين. وهذا الأمر فى دوره - فضلاً عن صعوبته حتى لدى علماء اللغات؛ إذ تقارن لغة قديمة بلغة حديثة - لا يدل على أن الزنوج كانوا يغطون مصر ثم هاجروا. والمعروف أنه قلما تنعزل لغة عن بقية اللغات، وعادة ما يكون لها شبه بلغات أخرى تكوّن معها مجموعة لغوية، وتتكون الأسرة اللغوية من عدة مجموعات. أما القول فى شأن وجود نماذج تتراوح بين مائتين وثلاثمائة كلمة مصرية قديمة، لا تزال حية فى اللغة العربية الفصحى، ثم وجود صلات جوهرية فى قواعد النحو والصرف فى كل من اللغة المصرية القديمة وسائر الفروع السامية (صالح ١٩٦٧م : ٢). والمثال على هذا وجود العين فى حروفها، وما أخذت به من سبق الفعل الفاعل، وإلحاق الصفة بالموصوف، واستخدام صيغة المثنى، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض أسمائها، وياء النسب، ودلوا على الجمع بالحرف واو للمذكر، وبالحرفين واو وتاء للمؤنث. (چورچ بوزنر ١٩٩٦م : ٢٩٠-٢٩١). فلا شك فى أن هذا يؤيّد بأن موقع مصر الجغرافى المحورى يؤدى إلى أن اللغة المصرية القديمة تحتوى على ألفاظ من البعدين الأفريقى والسامى، لا الأفريقى وحده.

وأما عن لفظ كميت KMT -وهو الاسم الذى أطلقه المصريون القدماء على الأرض الطينية (أرض الوادى) بمعنى الأرض السوداء - فتدعى نظرية أنتا ديوب أن المقصود بهذه الكلمة الإنسان وليس الأرض، أو الإنسان الأسود لا الأرض السوداء (ديوب ١٩٨٥م : ٥٨). وهو تفسير غريب كذلك، فإذا قالت النصوص القديمة «زراعة الكميت»، فهل يقصد بها زراعة الإنسان، أم زراعة

الطين؟ وما الرأى إذا كان المصريون القدماء يطلقون كلمة «تاردش» على الصحراء المحيطة بالوادى، ومعناها عندهم الأرض الحمراء؛ فهل كانت بشرة سكان الصحراء يوماً بيضاء مشربة بحمرة؟ على العموم لقد تعرض الشيخ أنتا ديوب لهجوم شديد من علماء اللغة الذين ذهبوا إلى أن هذه الصفة (كميت) لم يستخدمها المصريون للدلالة على السكان السود المقيمين فى الأراضى الأفريقية النائية، كما لم تجر العادة لديهم عموماً على استخدام أسماء الألوان للدلالة على الشعوب المختلفة (تقرير ندوة ١٩٧٤م : ٧٥٣).

خامساً: تشابه بعض المظاهر

أما مسألة ظهور بعض العناصر الحضارية المشتركة بين الحضارات الزنجية والحضارة المصرية القديمة؛ كبعض العادات، أو طريقة تصفيف الشعر، وغيرها؛ فمن المعروف أن هذه العناصر يمكن أن تنتقل من شعب إلى آخر، بدون حاجة إلى نزوح شعب بأكمله من إقليم إلى إقليم؛ فعلى سبيل المثال هل استخدام المصريين الشوكة فى الطعام، أو تقصير ذيل القستان أو إطالته، استدعت هجرة الفرنسيين إلى مصر ونزوح المصريين منها؟

والواقع أن نظرية الشيخ أنتا ديوب ما هى إلا رد فعل لما كتبه الأوربيون العنصريون فى النصف الأول من هذا القرن عن الزنوج، وكذلك سوء المعاملة التى لاقاها الأفارقة اللاتينيون فى باريس ولشبونة ومدريد؛ فقد حاصرهم لون جلدهم، وكان هذا بصفة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، حيث استقر بعض الأفارقة الذين كانت فرنسا قد جندتهم لمحاربة الألمان، واتخذوا من باريس مقرا لهم، فكان رد الفعل هو الفخر بالأصالة وعدم التبرؤ من الجذور، وكانت صيحة الزنوج التى ارتبطت أول ما ارتبطت بالشاعر والسياسى «إيمى سيزر» الذى يمكن أن نطلق عليه الزعيم السياسى للزنوج، وإن ارتبطت أكثر باسم الرئيس سنجور الذى يُعَدّ نبيها؛ فله الفضل فى انتشارها وتحويل كل شىء جميل

إلى اللون الأسود، فالجمال أسود، والحكمة سوداء، والشجاعة سوداء، والصبر أسود، والضحك أسود، والسلام أسود، والحياة سوداء، حتى المسيح أسود، والحضارة المصرية القديمة سوداء!.

ولكن هذا أمر عفا عليه الزمن، واعترف الأوربيون بقدر الحضارة الزنجية (سعودى ١٩٨٠م: ١٩١-٢٣٩)، ولقى الأفارقة فى جنوب الصحراء ما يستحقون من احترام فى ميادين عدة؛ كالفن، والموسيقى، والأدب، والسياسة، ويكفى أن «وول سوينكا» الروائى حاز جائزة نوبل، بل يكفى أن الشيخ أنتا ديوب من أفريقيا السوداء، فهل بعد ذلك تخلط الألوان؟

آسيوية الحضارة المصرية !!

وإذا كنا قد ناقشنا مسألة التكوين السلالى لمصر فى عهد ما قبل الأسرات؛ أى جنين الأسرات الفرعونية، وكذلك الأسرات الأولى التى أنتجت فأبدعت هذه الأهرامات الضخمة ومعابدها، وانتهينا إلى أن الشعب المصرى وحكامه لم يكونوا زنوجاً، ولم تكن هناك فى تلك الحقبة غزوات أوربية وآسيوية أزاحت هذا الشعب الزنجى، وحلت محله، وأن هؤلاء الزنوج ظلوا فى مصر حتى الأسرة الثامنة عشرة، وما بعدها حتى أزيحوا؛ أى حتى الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة (أى١٢٠٠ أو ١٣٠٠ ق.م)- فدعونا نبحث فى هذه الحقبة بأكملها عن غزوات ذات أثر أو هجرات محسوسة، علّها تكون هى صاحبة الفضل الذى ينكره المصريون، وإذا قلبنا أوراق التاريخ فلن نجد سوى الهكسوس فى الحالة الأولى وبنى إسرائيل أو اليهود فى الحالة الثانية، بخاصة أنه فى الحالة الثانية يدّعى بنو إسرائيل بأن الحضارة حضارتهم، وأنى لمن هم دون شعب الله المختار أن يكونوا أصحاب حضارة أصابت العالم بدهشة وذهول!. ولا ننسى فى هذا المجال ما قاله «مناحم بيجين» رئيس وزراء إسرائيل الأسبق حين حلق بالطائرة فوق الأهرامات!!

١ - الهكسوس:

أيا كان تفسير الاسم، فقد اجتمعت الأغلبية على أن معناه «الملوك الرعاة» ويظهر من سحنتهم وأزيائهم أنهم كانوا ساميين، شعورهم طويلة، ولحاهم مرسلة، وأرديتهم ملونة، ومظاهرهم تختلف عن المصريين.

وقديماً كان المصريون يطلقون هذا الاسم على القبائل الآسيوية التى كانت تَغِير على المناطق الشمالية الشرقية من الدلتا والوادى، ثم سموهم «شاسو»؛ أى الرعاة، وهو اسم كان المصريون يطلقونه على البدو الضاربين على حدود مصر الشمالية الشرقية وأصلهم من فلسطين (بدوى ١٩٥٠م: ٢٤٨). وهناك إجماع على أنهم من القبائل الضاربة فى فلسطين وربوع سوريا، بسبب ما أصاب أراضيهم من قحط وجفاف، لضغط الجماعات الآرية، وهذا رأى إدوارد ومايرو (بدوى ١٩٥٠م: ٢٩٨).

دخلوا مصر فى عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة الرابعة عشرة، وأسسوا الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، ولم يمتد نفوذهم إلا قليلاً بعد منف، بل إن غرب الدلتا كان تحت حكم الوطنيين، وكانوا يكتفون بجباية الضرائب، واتخذوا من أواريس (صا الحجر) فى شرق الدلتا حاضرة لهم.

وكان الهكسوس أصحاب غزو وإغارات، يجيدون صنعة الحرب، ويحسنون فنونها المختلفة، فلما دهموا مصر، هال المصريين ما رأوا من خيل العدو وعجلاته الحربية، وبطبيعة الحال لم يكن فى طاقة المصريين يومئذ أن يلقوا العدو ويقاوموه.

ويتحدث المؤرخون عن فظائع الهكسوس فى مصر، وما كان من تلك الأهوال التى هدت كيان المصريين، فقد أحرقوا القرى والمدن، وخربوا المعابد والعمائر، وأخذوا الناس بالصارم العنيف فذبحوا الرجال، وشردوا الأطفال، وسبوا النساء (بدوى ١٩٥٠م: ٢٧)، بل جاء فى أخبار الملكة حتشبسوت

أنها أصلحت داراً للمعبودة (حاتحور) بجهة القوصية شمال أسيوط، وأنها عمرت الخراب، وأتمت الناقص من معابد الواد وعمائر بعد الذى أصابها على أيدى الهكسوس.

ولم يُعرف عن الهكسوس أنهم كانوا أصحاب فنون من النوع الممتاز الذى يضعهم بين زعماء الفن فى الشرق، بل كانوا أهل حرب وتجارة، والحروب - كما نعلم - لا تتيح للناس فرصة التفكير فى فن أو إبداع، وإنما هى كرّ وفرّ، وإذا كان لهم بعض الآثار القليلة فهى مطبوعة بالطابع المصرى الخالص، ومن ثم فلم تكن حقبة حكمهم من عام ١٧٣٠ق. م إلى عام ١٦٨٠ق. م حقبة إبداع بقدر ما كانت حقبة إرهاب وسلب ونهب.

٢ - الإسرائيليون:

إذا انتقلنا إلى الإسرائيليين، وهم أبناء يعقوب عليه السلام الذى لقب بإسرائيل، نجد أنهم حين دخلوا مصر لم يكونوا غزاة فاتحين، وإنما - كما ورد فى التوراة والقرآن الكريم - أتوا إلى أرض النيل يلتمسون المأوى والشبع حين عضهم الجوع فى أرض كنعان. والراجح أن خروجهم كان فى عام ١٢١٤ق. م؛ ومعنى هذا أنهم دخلوا مصر فى عام ١٦٤٤ق. م على أساس أنهم مكثوا فيها نحو ٤٣٠ عاماً وهى المدة التى نَصُّ عليها فى التوراة، وإن كان البعض يقدرها بنحو مائتين وخمسين عاماً فقط (بيومى :٥٠٦).

وفيما يتصل بتاريخ خروجهم هناك عدة آراء؛ منها رأى من يلحقهم بالهكسوس؛ أى أن الإسرائيليين هم الهكسوس، وطردوا أيام أحمس الأول، وهذه بطبيعة الحال فرية قال بها مؤرخ يهودى فى مغالطة منه لرفع شأن الإسرائيليين، ولكن الرأى المتفق عليه أنهم لم يكونوا كذلك، وإنما هى فئة أخرى خرجت فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة فى عصر مرنبتاح (١٢١٤ق. م).

فإذا كان عصر بناة الأهرام الذى يشمل الأسرتين الثالثة والرابعة يمتد بين عامى ٢٩٨٠ق.م و ٢٧٥٠ق.م، فمعنى هذا أن أبا الهول والأهرام بنيت قبل هؤلاء بنحو خمسة قرون! وتصبح علاقة الأهرام باليهود علاقة دم الذئب بيوسف؛ أى لا صلة لهم بفكرة بناء الأهرام أو حتى بتنفيذها؛ أى باستخدامهم عمالاً للبناء، ثم ما لذى يدفعهم إلى أن يفكروا ويبتكروا للمصريين ويفيدوهم، وهم يحسون بأن المصريين يذلونهم، فقد كانت حياتهم فى مصر حياة الذل والهوان.

وقد عبر «إبيون» العالم النحوى السكندرى عن شعور المصريين نحوهم، فقد كان يكرههم، ويضمر لهم من ألوان العداوة والبغضاء أضعاف ما يخفى، فقد نسبهم إلى أصول برص، وكانوا فى رأيه نجساً، عرف أهل مصر الدنس فى أخلاقهم، واللؤم فى طباعهم، والالتواء فى تفكيرهم، فضاقوا بهم، وعذبوهم، وأخرجوهم إلى أقصى الأرض (بدوى ١٩٥٥م : ٥٩)؛ جاء فى التوراة: « فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن، وكل عمل فى الحقل. كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنف». وكان الهدف فيما يرى «چيمس فريزر» أن المصريين أرادوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق استخدام فى الأعمال الشاقة التى ربما قضت عليهم (بيومى:٤٥٤)، ولما فشلت هذه المعاملة فى تحقيق ذلك الغرض، أمر الملك بقتل الذكور من أطفالهم إثر ولادتهم؛ وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى سورة البقرة؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة ٤٩) .

وكان من نتائج ذلك أنهم يتطيرون من الأيام التى قضوها فى مصر، فهى محنة المحن فى تاريخهم كله من عهد إبراهيم إلى عهد هتلر؛ أى نحو أربعين قرناً، وكان الخروج من مصر أهم أعياد اليهود، عيد الفصح فى الرابع عشر من نيسان (إبريل) من كل عام (بيومى :٤٥٥).

وفى رواية أخرى عن المؤرخ اليهودى يوسف أنه ورد فى كتابات مانيتون المصرى أن خروج الإسرائيليين من مصر، يرجع إلى رغبة المصريين فى اتقاء وباء تفشى بين اليهود المستعبدين، وأن موسى كان كاهناً مصريا خرج للتبشير بين اليهود «المجذومين» وعلمهم قواعد النظافة المعروفة لدى الكهنة المصريين (ميخائيل ١٩٥٩م : ١٦١)، فأية حضارة ينتجها هؤلاء، وأنى لأصحاب القذارة أن يكونوا أصحاب حضارة.

حين دخل بنو إسرائيل مصر كانوا نحو ٧٠ فرداً نساء ورجالاً، وتجمعوا فى وادى جوش أو جاشان (وادى الطميلات) (ديوب ١٩٩٥م : ٢٣) فهى حارة اليهود بالنسبة لهم فى ذلك العهد، ويقولون إنهم حين خرجوا كان عددهم يربوا على ٦٠٠ ألف نسمة (ميخائيل ١٩٥٩م : ١٥٣)، وهذه فرية أخرى، فإذا كان عدد سكان مصر عام ١٨٠٠م فى تقدير جومار عالم الحملة الفرنسية نحو ٢,٥ مليون نسمة (صبحى ١٩٥٨م : ٤٢٠-٤٢١) فكم يكون عدد سكان مصر قبل ذلك بثلاثة آلاف عام؟ حتى يكون اليهود نحو ٦٠٠ ألف نسمة؟

ويعزز المؤرخون الرأى بأن العدد لا يمكن أن يبلغ ما يزيد عن نصف مليون ابتلعتهم سيناء، بأن موسى كان يفصل فى مختلف ألوان الخصام بين العشائر والأسر، وهذا أمر ممكن أن يتم إذا كان العدد ستة آلاف، ولكن محال إذا كان العدد يزيد على نصف مليون، ويضيفون إلى هذا أن قابلتين كانتا تقومان بمساعدة الإسرائيليات على الوضع (الولادة) فى مصر، وهو أمر معقول فى حدود ستة آلاف؛ أى بمعدل مولود كل أسبوع، فى حين أنه من المحال قبول ذلك بالنسبة إلى ٦٠٠ ألف نسمة، وهو ما يعنى أن يصير لدينا ١٤٠مولوداً فى اليوم (ميخائيل ١٩٥٩م : ١٠٤).

واليهود شعب جرب كما ذكر مؤرخ اليهود نفسه، ويتميز بالكذب والادعاء والالتواء، لاهمَّ له إلا جمع المال، منطو على نفسه، يمتص دماء الآخرين.

٣ - حضارة مصر وحضارة العراق:

يذهب بعض آخر إلى القول بأن الحضارة القديمة نقلت عن حضارات ما بين النهرين وما حولها؛ لأن الأخيرة أسبق، ولكن الجغرافيا والتاريخ والآثار كل ذلك يقف إلى جانب الحضارة المصرية القديمة :

أولاً : كان الموقع الجغرافى للعراق فى أقصى الشرق الأدنى أكثر امتداداً نحو الشمال، وهو ما جعله مجاوراً لإقليم الإستبس فى وسط آسيا، وفى بيئة كهذه اعتاد الرعاة الإغارة على الأقاليم المجاورة، ومن ثم تعرض العراق لكثير من هذه الغارات التى تميزت بالعنف، وأشهرها ما حدث فى القرون الوسطى، ومحاصرة بغداد عام ١٢٥٧م، وغدر المغول بالخليفة وجيشه، وأباح هولاكو المدينة لجنوده، وانتشر المغول فى أحيائها يقتلون الرجال ويأسرون الأطفال، ويستبيحون النساء أربعة أيام بلياليها، حتى امتلأت خيام المغول بالأسلاب والمغانم والذهب والفضة والنساء، فضلاً عن رءوس القتلى التى عمد الجند إلى اللهو بها على شواطئ دجلة (سعودى ١٩٩١م : ٢٨) هذا مثل من العصور الوسطى، ومعروف لنا جميعاً. ولا شك فى أن هذه لم تكن الأولى، بل تكررت قديماً، فى حين كان تركز السكان فى وسط الوادى والدلتا بمصر وإحاطة الصحراء بهما فى شكل شرنقة حامية تستنزف قوة الغزاة إلى حد كبير، فهناك الرهبة والفزع، وهنا الاطمئنان والطمأنينة، وانعكس هذا على الآثار، فنقوش العراق القديمة تتميز بضخامة الرأس وسعة العينين وكثافة شعر الرأس وشعر الذقن والشارب ليوحى بالقوة والرهبة، على عكس رقة النقوش المصرية، فالفن لا يرقى فى ظل العنف والسلب والنهب والقتل، وإنما يرقى فى ظل الأمن والطمأنينة. فلا إبداع للإنسان فى ظل الفزع والوجل. ومن ثم أيضاً كان اهتمام العراقيين القدامى - إن صحت التسمية فى ذلك العصر - بالدنيا أكثر من

الآخرة، وهى الظاهرة التى وجدنا مقابلها فى آثارنا المصرية الممثلة فى مقابرهم التى وصلت فى ضخامتها إلى حد الأهرام.

ثانيـــاً: اختلاف بيئة الرافدين مناخيا عن البيئة المصرية؛ إذ يسقط المطر الشتوى على الأولى وإن لم يكن غزيراً، وهو مما أدى إلى تشتت التوزيع السكانى، فى حين دعا الجفاف فى مصر السكان إلى أن يتجمعوا ويحتشدوا بالقرب من مورد الماء (النيل)، ثم يأتى فيضان النيل ليسقى الأرض، وبعد ذلك ينحسر، ليظهر النبت؛ (عملية رى طبيعية)، ولن أخوض فيما أوحى به النيل من التقويم والحساب والهندسة، فى حين أن أمطار شمالى العراق تتميز بالذبذبة الحادة بحيث لا يُعتمد عليها فى كل الأحوال. بل إن فضل فيضان النيل فى مصر وفضل انحساره كانا يتفقان مع عملية الزراعة وكأن بينهما اتفاقاً مسبقاً، يفيض فى الخريف وتصبح الزراعة الشتوية ممكنة، ثم يغيض وترتفع الحرارة لينضج الفول والعدس والبصل والقمح . . . إلخ، فى حين يأتى فيضان دجلة والفرات فى الربيع حين تذوب ثلوج هضبة أرمينيا، كاسحاً ومغرقاً هذه المحاصيل، فبقدر ما كان هناك اتفاق بين الزراعة والنيل كان هناك نفور بين الفرات ودجلة والزراعة.

وإذا كان أهل العراق وسوريا قد عرفوا الزراعة، فكل ما يطمعون فيه هو أن يقولوا كان عصراً قريباً من عصر الزراعة المصرية وليس سابقاً عليه، وحين انتشرت فى وديان العراق الشمالية، كان فى مواطن صغيرة ومتفرقة، حيث يستقر السكان المبعثرون، لذلك قال Fleure فى كتابه عن نشأة الزراعة فى العالم: «كان معرفة المصريين بالزراعة منذ أكثر من ٧ آلاف عام، قبل غيرهم من أصل العالم القديم المسكون».

ثالثاً: كان النيل عامل الوحدة بين السكان بفضل تقديمه وسيلة اتصال طبيعية وسهلة ومستمرة لمسافات طويلة على طول الوادى، فى حين كانت الملاحة

فى دجلة والفرات غير مأمونة دوماً؛ سريعة الجريان حينا، ومناقع وغدران أحياناً، وفيضانات عنيفة غاية العنف بحيث أصبحت «زوبعة الفيضان» مثلاً استخدمه أدباء العراق القدامى للتعبير عن كل أمر كاسح.

رابعاً : كل هذا أدى إلى تأخر الوحدة السياسية الشاملة، مع الامتداد الطويل لإقليم ما بين النهرين من أرمينيا إلى الخليج والظروف البيئية الأخرى، فإذا كانت بداية التاريخ وبداية الأسرات فى العراق ترجع إلى عام ٣٨٠٠ق.م، فإن الوحدة السياسية الشاملة والقومية لم تظهر إلا فى عصور متأخرة أو ما يطلقون عليه العصر الأكادى؛ أى بين عامى ٢٣٤٠ق.م و ٢١٨٠ق.م (صالح ١٩٦٧م : ٥). وهذا يقابل فى التاريخ المصرى القديم عصر الأسرة السادسة، فى حين كان عهد بناة الأهرام الأسرتين الثالثة والرابعة بين عامى ٢٧٠٠ق.م و٢٤٥٠ق.م؛ أى قبل وحدة العراق بقرون. بل لقد كانت وحدتهم؛ لا تستمر طويلاً لكثرة المشاحنات بين البابليين والآشوريين، ولم تكن محاولات الترابط سوى رغبة فى بسط النفوذ وتصريف التجارة.

خامساً: أدت قلة المحاجر فى أراضى النهرين إلى صغر حجم التماثيل، ونحت أغلبها من الحجر الجيرى، مع قلة المصنوع من الأحجار الصلبة؛ كالجرانيت والبازلت كما هو الحال فى مصر، كما كانت تبنى المقابر بالطوب اللبن تحت سطح الأرض، فأين هذا من تماثيل مصر ومقابرها الشامخات؟

إن الذين يرون أن مصر نقلت حضارتها فى أواخر عصر ما قبل الأسرات وبداية الأسرات من بلاد ما بين النهرين بعد كل ما قلناه، يتناسون أن تاريخ الحضارة المصرية الفرعونية لم تبدأ منذ عام ٣٢٠٠ق.م؛ أى مع بداية العصر التاريخى تقريباً وبداية الأسرة الأولى، وإنما يرجع إلى مئات الآلاف من السنين قبل هذا التاريخ، وأن هذه الحضارة الفرعونية تتطلب استعداداً سابقاً، وتنظيماً اجتماعيا، وتجارب تستغرق آلاف السنين حتى يمكن أن تنتج هذه

الحضارة (رزقانة ١٩٥٠م : ٢١٠)؛ ذلك أن مبانى الحضارة الفرعونية الحجرية هى سليلة مبانى طوب اللبن فى عصر ما قبل الأسرات، حيث أمكن استكشاف قرية بها منازل ذات شكل مستطيل فى محطة المعادى، وهذا اللبن هو سليل كتل الطين غير منتظمة الشكل، واستخدام الأوانى المصنوعة من الفخار المحروق بدلاً من السلال المجدولة التى تدهك بالطين، والتابوت الحجرى الذى اشتهر به العصر الفرعونى هو سليل تابوت البدارى الذى كان على هيئة صندوق من القش المجدول يوضع فوق جسد الميت ليحفظه من التراب، ثم تقدم شكل القبر وبناؤه فيما قبل الأسرات؛ إذ أدخل المصرى القديم الجدران من اللبن، وأضيفت حجرات غير حجرة الدفن الأصلية، خصصت للمؤن، وسلم النزول والصعود (بدوى ١٩٥٠م : ٣٤). أبعد هذا نقول : إن حضارة النهر منقولة عن حضارة النهرين؟

إذا كان هيردر من المدرسة الألمانية يقول إن تاريخ كل شعب هو حصيلة للفعل المتبادل بين نوعين من القوى؛ القوى الخارجية التى تشكل محيطه الجغرافى الذى عاش فيه، والقوى الباطنية التى تعبر عنها روح الشعب وتعبر عن نفسها فى كل ما أفرزه أهلها من حضارة؛ فإن موقع مصر الجغرافى وموضعها من حيث الوادى الخصيب بين صحراوات شبه جافة، وجافة أشد ما يكون الجفاف أعطت مصر فرصاً لم تكن متوافرة فى أراضى النهرين، سواء فى عصور الجليد التى كانت تهب فيها ريح عاتية من وسط آسيا ومن ثلاجات أرمينيا، أو فيضانات كاسحة فى فترات الدفء، وأمام القوى الباطنية أو الداخلية التى تعبر عن نفسها، فى كل ما يفرزه أهلها، فقد ثبت أن المصرى الآمن المطمئن، المستقر كان عبقريا، على عكس ابن النهرين المتشاحن الفزع، ومن ثم ففى مصر كانت عبقرية المكان جنباً إلى جنب مع عبقرية الإنسان.

• وخلاصة القول :

إن قاعدة الأساس عند المصريين القدماء تتكون من عناصر أصيلة فى مصر، ولم تفد إليهم من مكان آخر كما يقول «شانتر» ويوافقه «مايرز» والأثريون ورجال التشريح المصريون، وتأثروا بحكم موقع مصر الجغرافى بعراض الرءوس عبر برزخ السويس، وبعض التأثيرات الزنجية القليلة فى الجنوب. هؤلاء المصريون القدماء كان تتويجاً لهم المصريون التاريخيون بناة الأهرام.

هكذا كثرت النظريات المتعارضة عن أصول أصحاب الحضارات المصرية فى العصر الفرعونى وفجر التاريخ، منهم من أرجعهم إلى أصول زنجية، ومنهم من أرجعهم إلى أصول آسيوية. وقد رأينا أن موقع مصر الجغرافى وموضعها بوصفها بيئة خصبة، جذبت عناصر خارجية، ولكنهم فى معظمهم من الرعاة الذين خرجوا كما دخلوا، حتى الإغريق دخلوا للعمل والتجارة أو الغزو، وكان اختلاطهم قليلاً بالسكان، وكذلك النوبيون الذين استقروا فى جنوب مصر، كل هذا أضاف إلى ثروة مصر البشرية، فهى إضافة إلى الأصل، ولم يغيروا من الطابع العام للسكان، وبقى المصريون على مر الزمن جزءاً من سلالة البحر المتوسط (القوقازيين الجنوبيين) أضيفت إليها دماء خارجية استوعبتها بفضل العدد الكبير والحياة المستقرة (حزين: ٢٥٤)، أو كما يقول شانتر E.Chanter : إن المصريين القدماء شعب أصيل فى مصر، ولم يفدوا إليها من مكان آخر (حمدان : ٤٦).

المراجـــــع

- بدوى ، أحمد: فى موكب الشمس، الجزء (٢)، فى تاريخ مصر الفرعونية من آخر الضحى إلى أول الأصيل، القاهرة، ١٩٥٠م .

- بدوى ، أحمد: فى موكب الشمس، الجزء (١)، فى تاريخ مصر الفرعونية من فجر الصادق إلى آخر الضحى، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٠م .

- تقرير عن ندوة «عمران مصر القديمة بالسكان، وكذلك رموز الكتابة المروية» (القاهرة ٢٨/١-٣/٢/١٩٧٤م) فى اليونسكو: حضارات إفريقية القديمة، اليونسكو، ١٩٨٥م .

- جرافتون، إيليوت سميث (١٨٧١-١٩٣٧م) بريطانى، شغل منصب أستاذ علم التشريح بمدرسة الطب فى القاهرة (١٩٠٠-١٩٠٩م) تخصص فى التحنيط.

-G. Elliot Smit, The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization, New Edition, 1923 .

- چورچ بوزنر، سيرج سونرون ، چان بويوت أ . س. إدواردز، ف . لبوتيه، چان دوريس: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: أمين سلامة، ومراجعة: سيد توفيق، القاهرة.

- حزين، سليمان: حضارة مصر، أرض الكنانة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩١م.

- حسن ، سليم : مصر القديمة فى عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الأهناسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جزء (١) ، ١٩٩٢م .

- حمدان، جمال: شخصية مصر ، القاهرة ، ١٩٧١م .

- ديوب ، أنتا: أصل المصريين القدماء فى تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثانى، حضارات إفريقية القديمة، إشراف الدكتور جمال مختار، الطبعة العربية، اليونسكو، ١٩٨٥م .
- ديوب، أنتا: الأصول الزنجية للحضارة المصرية، ترجمة : حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة، ١٩٩٥م.
- رزقانة، إبراهيم أحمد: الحضارات المصرية فجر التاريخ، القاهرة، ١٩٤٨م.
- سعودى، محمد عبد الغنى: قضايا إفريقية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م.
- سعودى، محمد عبد الغنى: الموقع الجغرافى للخليج وأثره على الاتجاهات البشرية فى ندوة عن أزمة الخليج من منظور جغرافى، الجمعية الجغرافية المصرية، ١٩٩١م .
- سيريل، الدريد: الحضارة المصرية: من عصر ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة وتحقيق: مختار السويفى، مراجعة وتقديم: د. أحمد قدرى، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م .
- صالح، عبد العزيز: تاريخ الشرق الأدنى ، مصر والعراق، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧م .
- محمد صبحى، عبد الحكيم : سكان مصر، فى: دراسات فى جغرافية مصر، تحرير محمد محمود الصياد، القاهرة، ١٩٥٨م .
- قير، كوتيرجان : مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاتى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م .
- مهران، محمد بيومى: مصر والشرق الأدنى، الحضارة المصرية القديمة، مصر منذ قيام الدولة الحديثة حتى الأسرة الحادية والثلاثين، الجزء الثالث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧م .

- ميخائيل، نجيب: مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، سوريا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م .

- Fleure : The Origin of Agriculture, Cambridge, 1928 .

- مانيتون: هو كاهن مصرى، قام فى حوالى عام ١٨٠ق.م بتصنيف مجموعة من المدونات والتسجيلات التى كتبت فى العصور السابقة، ورتب فيها أسماء الملوك الذين حكموا مصر، وفترات حكمهم، وقسمهم إلى ٣١ أسرة ملكية، ومازال هذا التقسيم الذى وضعه مانيتون متعمداً عليه حتى الآن، حتى إن علماء المصريات والتاريخ المصرى القديم لم يدخلوا عليه تعديلاً سوى قيامهم بتقسيم فترات حكم هذه الأسرات الملكية إلى عصور مستقلة لعصر الدولة القديمة، وعصر الدولة الوسطى، وعصر الدولة الحديثة، وعدوا الفترات الفاصلة فترات اضمحلال واضطرابات سياسية.

وهذا الكاهن المصرى الذى عاش فى عصر بطليموس فيلادفوس، كتب تاريخ مصر باللغة اليونانية، ولكن للأسف لم تصل إلينا مدوناته الأصلية، وإنما وصلت إلينا شذرات مشوشة وملخصة تضمنتها كتابات بعض المؤرخين التاليين لعصره.

- عاش فلافيوس يوسف Flavious Josephus اليهودى فى القرن الأول لميلاد المسيح، وكان موتوراً من «أبيون النحوى السكندرى» الذى كان يبغض اليهود ويصفهم بصفات كريهة، فخلط يوسف بين الهكسوس واليهود، وجعلهم شعباً واحداً، ليرفع من شأن قوة اليهود، والعجيب أن يوسف الذى عاش قبل ١٨ قرناً لم يختلف كثيراً عن أبناء جلدته اليوم فى عدم مراعاة الأمانة فى النقل، فقد زعم أن مانيتون أقر بأن اليهود هم الذين هاجموا مصر ودخلوها بدون حرب، وأذلوا أهلها فى دينهم ودنياهم، وبذلك كان يحرف ما نقل لحاجة فى نفسه (بدوى: ٢٩٤).

جامعة الدول العربية
معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية